

دلالات الزمن في رواية "غدا يوم جديد"

لعبد الحميد بن هدوقة

أ. بoudali التاج⁽¹⁾

أستاذ مكلف بالدروس،

كلية الآداب و العلوم الإنسانية- جامعة سدي بلعباس-

توطئة

يمثل الزمن إحدى ركائز بناء الرواية الحديثة كفعل أدبي، فعليه تُبنى الأحداث وفيه تتحرك الشخصيات ومنه يستمد الكاتب أفكاره التي يؤمن بها والتي لا يؤمن بها كشخص له بيئته الخاصة وعالمه اللامتناهي والمليء بالمفاجآت، ويبقى الزمن متحركاً وثاباً، دينامياً، تعاقبياً له حضوره الخاص وكيونته.

لقد وقع اختياري على نص جدير بالدراسة لكاتب جزائري مرموق له باع طويل في كتابة الرواية بمختلف اتجاهاتها ومشاربها السياسية والاجتماعية والنفسية⁽²⁾، وهو عبد الحميد بن هدوقة (1) صاحب « الجازية و الدراويش » و « ربح الجنوب » ولكن اختياري وقع على روايته "غدا يوم جديد"، كحقل أدبي ومعرفي، استقرئ من خلاله دلالة الزمن وبنائيتها وذلك عبر العناصر التالية:

1- الزمن المتحجر:

إن ماهية الحضور والغياب تمتد داخل الرواية، كأنها المد والجزر، فالحضور الزمني قد يتجمد حين تكثر مآسيه وتثقل معاناته فنروح نرتقب زمن

1 الفرج الذي يبدد لحظة التحجر، ليحيل تلك الحياة المشحونة بالآلام والمضغمة بالغرائبية، وكأن الوقت قد توقف وعقارب الساعة قد تعطلت لتُصادر أحلام مسعودة - البطلة - فهي لا تريد استئناف الحياة، "انتهى كل ذلك الآن" (2) إن استمرارية الحياة يبتغيه كل إنسان ذاق مرارة الحياة وتجرع كؤوس الوهن والضيم، لكن بطلتنا تأبى سيرورة اللحظات وتواليها لتسكن داخل أحلامها المعتقة بالذكريات فقد كانت في شبابها ترى الدنيا لوحات متجددة، حية (3) ... ثم يأتي الغياب الزمني - بألقه - ليلطف الواقع المتحجر ويؤكد على مفهومية التواصل، فالمسكونية تحكمها دوما العودة إلى اللحظة الحسية الممتلئة بحدة التجربة المعذبة والغائرة دوما في الماضي الذي صار جزءاً من المستقبل.

تقول على لسان صديقتها: "ارتحت من حياة الظلام والوحل والشتاء فهي تختصر كل ليلة والوحل الذي حول أزقتها إلى أراض ملء بالماء الملطخ بغبار الطريق والشتاء الذي تتعب فيه وخاصة في جلب الماء والبكور صباحاً لطهي القهوة، فالحياة أضحت جحيماً لا يطاق". (4)

لقد ذهب إليه أحد الباحثين إلى أن تجميد الماضي انتصار للزمن لأنه حينها يصبح الماضي تعبيراً عن واقع استلابي والناس لا يتحكمون في مصائر الأشياء والحوادث والموجودات. (5)

إن الشخصية المحورية تتشبه دوماً بزمن الطفولة لترتمي في أحضان زمن الأبدية أو ما يسمى بالزمن الصوفي - الأسطوري - فتقول حائرة، محاولة فك رموز الماضي لتفهم الحاضر، "أود أن أبتعد عن هذا الحاضر المضطرب إلى ذلك الماضي النير الوضاء.." (6)

وهكذا غدت تبحث عن زمن آخر، لم يعد موجوداً وهو الماضي، تحجرت ذكرياته، لتعاق طفولتها الوبيعة وأحلامها الصبيانية فتصنع منهما تاجاً مرصعاً بالذهب وضياء نيراً، وحينها يمكن أن تستطيق الماضي فتحوله إلى حاضر مبني على قيم إنسانية واجتماعية وأخلاقية ولأن الصوفية طُهر وملاذ للمؤمن إذا ادلهمت به الخطوب فإن مسعودة نظرات ثاقبة فهي ترى أن الصلة مع الله شيء مقدس، ولا يجب أن تؤدي الصلاة إلا في مكان طاهر.

تقول: كانت الصلاة في الماضي عزيزة، تصلى في أجمل مكان، وأظهر مكان" (7) وكأنني بها تجترئ زمناً آخر، لتصالح فيه الذات مع الواقع لتجسيد حاضرة الزمن الذي ما انفكت مسعودة تبحث عنه في عيون المارة وأزقة الشوارع الضيقة، إنه زمن التيه والضياغ والانتماء لينبع بداخلها حساً فجائعاً، يوقف الزمن كله، ويكلسه (8) فهو ليس وليد انفعالات ذاتية ساذجة أو تقلبات مزاجية، بقدر ما هو وعي جماعي لما يحيط بها من خطوب وصروف..

2- إستراتيجية الزمن

إن التصور المكاني للزمن يعطي قابلية للتغير، فتغلو الحركة تجسيدا يتسم بالتضخم والحدود فسلطان الزمن لا أحد باستطاعته أن يحد من تياره الجارف ويقهر سطوته، حتى تلتقي مسعودة بلحظات الفرح المنتشي تقول مندهشة من الزمن الذي ما فتئت تحن إليه وتعتقد طويلاً "إن الزمان قصير، والذي يعتقد أن الزمان طويل لا يعرف الحياة وأنه يحيا بلا زمن في الجنة" (9) لقد ارتبط الزمان بمعنى الخلود، بإمكان الأبدية الجنة، أثناعها يصبح الزمن قريباً، متداخل الأحداث ومتفقاً بمعاني الزمنية. (10)

يقول الراوي: "...من المحطة ابتدأت حياتي تدخل العالم، كنت ميتة، وجاء الحلم وكان اسم حلمي القطار." (11) فهو أشبه بالقدر الذي يأتي به الزمن، ليمدد مصائر الناس.

وحرى بمسعودة أن تعيش في حلمها الصغير الممتزج بالزمن المفقود، وهو ما يسميه يوسف الشاروني بالوعي الضدي (12) للذات في الزمن بجميع مستوياته، فتراها تشعر بعدم انتمائها لأي زمن لا الماضي ولا الحاضر ولا المستقبل.

3- وتيرة الزمن وحس التناهي

لقد اتسمت الأحداث داخل الرواية بوتيرة زمنية عجيبة، فبطلتنا تأثرت باحتفالية مرور قرن على دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، ثم يرتد إلى أحداث ديسمبر 1961م ثم تأتي أحداث أكتوبر 1988، وأحداث جوان 1992.

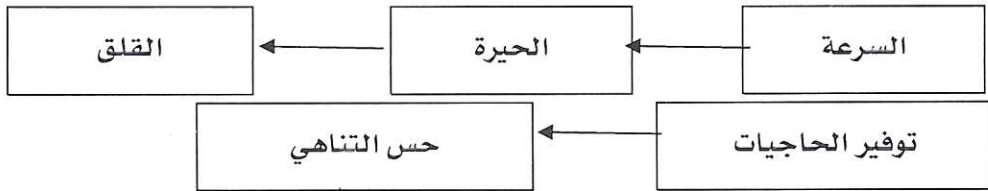
وكأن الزمن يتحرك بسرعة (13)، وهذا النوع من الزمن لا يفهم إلا حين نفهم السرعة، فهي سرعة تتجاذبها شخصيات وأهواء ذاتية مقيتة، تتقاذفها قناعات تروم السيطرة على الوعي الجماعي والفردى. فمسعودة تمثل بحسها تدفقاً لمجرى الأحداث المتعاقب فهي تأسف على أمس وتستدعي غداً، قلقاً تسعى لتوفير حاجياتها وتأمين حياة رغيدة، يسودها الحلم، الذي ما فتئت تبحث

عنه. ولكن التقاءها بالحاج أحمد لون حياتها بغروب من الوعي والتفكير في مستقبل تجد فيه نفسها طرفا ضمن إيقاع زمني حافظ على وتيرته وتناهي إلى تشكيل وقفة نهائية.

ولاغرو أن يشكل موضوع التناهي حسا يقودنا إلى وصف هذا المفهوم المستغل على نفسه من خلال:

طرح الأسئلة:

- 1- هل هي تفكر؟
- 2- ماذا تقصدون بالمعرفة؟
- 3- من يكتب قصتي أنا؟
- 4- من يشتري الكلمات؟



4- استعادة الزمن الضائع (ماذا ستفعل مسعودة):

إن أكثر الذكريات التصاقا بالنفس، وأكثر قربا منها، هي الذكريات الأشد مرونة ومواجهة في إبراز الذات وتخليصها من الإحساس بالماضي التعيس، ولعل استحضار الزمن الضائع في واقع الأشياء يوحي بإيجاد الملاذ الأمن لصنع الفرح واستعادة الفكرة التائهة زمن الضياع...

أ- زمن الطفولة

إن الطفولة لا تعرف حس الفناء ولا قلقا (14) ولا تدرك معنى الخوف المحقق بها، فهي فترة سمرمية مليئة بالحماس مهيئة دوما للدهشة والغرابة، فهي أشبه بلحظة خارج أسوار الزمن، تقول مسعودة: "الماضي هو الطفولة. الحياة أيضا طفولة، لكنها متجددة. لذلك تتجدد أغلاطنا لكن المؤسف هو أن رؤيتنا للأشياء لا تنفذ إلى المكنون (15)

ثم تردف قاتلة معزية نفسها ونادبة حظها التعيس، غير آبهة بمرور العمر وجرية: "عندما كنت صغيرة كنت أحلم، لكنني لم أكن أعرف ما الحلم، الشباب حلم والشيخوخة ذكريات. هذا هو عمر الإنسان. كل يوم نستقبل يوما جديدا. ولكنه قديم" (16).

لقد تاقّت النفس إلى زمن الطفولة لتقاوم بزمن الهارب وتتخلص من حركات المد والجزر، وضغوطات ساعات الخسوف والكسوف، وتنبؤات المرافد (17).

وهل كانت تعرف أن فرنسا مجرد بدلة (كاكي) قبعة وحصان، وهي تمضي إلى المحطة فتصورت أن هذا الوحش المخيف ليس إلا رجال درك يجولون الشوارع، كانت طفلة صغيرة، لا تدري من تجارب الحياة شيئا، إنها موجة طفولية، تحن إلى الأيام الخوالي... المأوى بالتناغم، وبطلتنا لا تميز بين الرغبة الجامحة إلى صنع الذات والإرادة الباحثة عن آليات هذا الصنع الذي سيحولها إلى